

الإمام المقرئ الذي حول أزمات مصر إلى دروس في الاقتصاد والعمران والتاريخ



الأحد 9 أغسطس 2026 10:30 م

بعد مرور ستة قرون على وفاة المؤرخ المصري تقي الدين أحمد بن علي المقرئ، لا يزال اسمه حاضرًا بقوة في كتب التاريخ والدراسات الحضارية والاقتصادية، باعتباره واحدًا من أبرز المؤرخين الذين لم يتعاملوا مع التاريخ باعتباره مجرد سجل للأحداث والوقائع، وإنما جعله أداة لفهم المجتمع، وتحليل أسباب الأزمات، وتفسير صعود الدول وانحدارها، ورصد التحولات التي تصيب المدن والاقتصادات والأنظمة السياسية.

ويكتسب استحضر سيرة المقرئ أهمية خاصة مع حلول الذكرى الـ600 لوفاته، إذ تتيح هذه المناسبة إعادة النظر في مشروعه العلمي الضخم، الذي امتد من تاريخ مصر والقاهرة إلى دراسة الاقتصاد والنقد والمجاعات والأوبئة والعمران والطوائف والمذاهب والدول، فضلًا عن اهتمامه بالآثار والتراجم والعلوم الدينية.

لم يكن المقرئ مؤرخًا منعزلًا عن عصره، بل كان ابنًا مباشرًا لمرحلة شديدة الاضطراب من تاريخ مصر المملوكية؛ عاش أزمات اقتصادية واجتماعية وسياسية عميقة، وشاهد آثار الفساد وسوء الإدارة وارتفاع الأسعار والمجاعات وتراجع العمران، فانعكست تلك التجربة في كتاباته التي حملت في كثير من الأحيان نبرة تحذير للمستقبل، وكان المؤرخ كان يكتب للماضي والحاضر معًا.

مصر في قلب مشروع المقرئ

كان ارتباط المقرئ بمصر يتجاوز مجرد الانتماء الجغرافي، فقد جعل القاهرة ومصر محورًا رئيسيًا في مشروعه التاريخي والعمراني.

وفي مقدمة كتابه الشهير «المواظ والاعتبار بذكر الخط والآثار»، عبّر عن تعلقه الشديد ببلاده، واصفًا مصر بأنها مسقط رأسه وموطن أهله وبيئته التي نشأ فيها وتعلم بين حوارها ودروبها.

وتكشف هذه الكلمات جانبًا مهمًا من شخصية المقرئ؛ فهو لم يكتب عن مصر من موقع المؤرخ البعيد عن موضوعه، بل كان شديد الصلة بالمكان الذي يدرسه، يعرف تفاصيل العمرانية والاجتماعية والسياسية، ويرصد تحولاته من الداخل.

ولهذا جاءت غالبية مؤلفاته التاريخية الكبرى مرتبطة بمصر، سواء من خلال دراسة سكانها، أو حكامها، أو عمرانها، أو مؤسساتها، أو تاريخها السياسي والديني.

فكتب عن الإنسان المصري بمختلف طبقاته ومذاهبه وأديانه ومهنه، وتناول الفلاح والصانع والتاجر والموظف والفقير والسلطان، كما سجل حضور الأقباط واليهود والمكونات المذهبية والطائفية المختلفة في المجتمع المصري.

مولده ونشأته في القاهرة

وُلد أحمد بن علي المقرئ سنة 766هـ/1365م في حارة برجوان بالقاهرة المملوكية، ونشأ في أسرة ذات جذور علمية واضحة.

وكانت أسرته قد ارتبطت بالعلم منذ أجيال، إذ كان جده محيي الدين عبد القادر بن محمد من أهل الحديث، وامتلك تكوينًا علميًا واسعًا أهله لمكانة بارزة في دمشق والقاهرة.

أما والده علاء الدين علي بن عبد القادر، فقد نشأ في دمشق ثم انتقل إلى القاهرة، حيث تولى عددًا من الوظائف، وعُرف بالعمل في الكتابة والحساب والوظائف السلطانية

وكانت والدته أسماء بنت شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ابن الصائغ الحنفي، وهي شخصية وصفها المؤرخون بالعلم والفضل، حتى إن ابن حجر العسقلاني وصفها بأنها كانت عاقلة وفاضلة ودينة، ونقل المقرئ نفسه عنها بعض الروايات والسماعات العلمية

وهكذا نشأ المقرئ في بيئة علمية أتاحت له منذ طفولته الاحتكاك بالعلماء والكتب والروايات، ووفرت له أساسًا معرفيًا ساعده لاحقًا على بناء مشروعه الموسوعي

من الحنفية إلى الشافعية: تكوين علمي متنوع

بدأ المقرئ حياته العلمية على المذهب الحنفي، متأثرًا ببيئة جده لأمه، قبل أن ينتقل لاحقًا إلى المذهب الشافعي

وتشير المصادر التي تناولت سيرته إلى أن هذا التحول وقع بعد وفاة والده، حين كان قد تجاوز العشرين من عمره

لكن شخصيته العلمية لم تكن محصورة في إطار مذهبي واحد، فقد ظهرت في كتاباته ميول واضحة إلى مدرسة أهل الحديث، كما نُسبت إليه نزعة ظاهرية في بعض جوانب تفكيره

وكان هذا التنوع جزءًا من تكوينه العلمي؛ فقد تداخلت في شخصيته روافد أسرية حنبلية، ونشأة حنفية، وانتماء شافعي، وميول أثرية وظاهرية، فضلًا عن اهتمامه بالحديث وعلومه

كما تأثر المقرئ بشخصيات علمية وفكرية بارزة، وفي مقدمتها ابن تيمية، الذي كان يحظى بمكانة كبيرة في كتاباته، إلى جانب تأثره الكبير بشيخه المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون

المقرئ وابن خلدون: مدرسة تاريخية غيرت طريقة قراءة الماضي

كان اللقاء مع ابن خلدون نقطة تحول رئيسية في تكوين المقرئ العلمي والمنهجي

فقد أقام ابن خلدون في القاهرة خلال الربع الأخير من حياته، وأقبل عليه طلاب العلم، وكان المقرئ من أبرز من لازموه وانتفعوا بعلمه

لم يكن تأثير ابن خلدون على المقرئ مجرد تأثير أستاذ في تلميذ، بل امتد إلى طريقة النظر إلى التاريخ ذاته

فالتاريخ عند المدرسة الخلدونية لم يكن مجرد سرد للأحداث، وإنما بحث عن أسبابها ونتائجها، وتحليل للعوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعمرانية التي تقف وراءها

وقد استوعب المقرئ هذا المنهج وطبقه بصورة واسعة في مؤلفاته، حتى أصبح أحد أبرز ممثلي المدرسة الخلدونية التاريخية في مصر

وكان اهتمامه منصبًا على ما يمكن تسميته «طبائع العمران»، أي دراسة العلاقة بين المجتمع والاقتصاد والسياسة والعمران، ومحاولة فهم القوانين التي تحكم ازدهار الدول والمجتمعات وانحدارها

المؤرخ الذي رأى في التاريخ «ديوانًا للعبر»

لم يكن التاريخ لدى المقرئ مجرد صفحات للمطالعة أو حكايات للتسلية، وإنما كان وسيلة لاستخلاص العبر وفهم الحاضر والاستعداد للمستقبل

ولهذا ركز في كتاباته على فترات المحن والأزمات، وخصوصًا المجاعات والأوبئة وارتفاع الأسعار والانهايار الاقتصادي

ومن أبرز أعماله في هذا السياق كتاب «إغاثة الأمة بكشف الغمة»، الذي وضعه في مرحلة عصيبة من تاريخ مصر، حين ضربت البلاد موجات من الغلاء والمجاعات والأوبئة

لكن المقرئ لم يكتف بتسجيل حجم الكارثة، بل حاول البحث عن أسبابها، وطرح تفسيرًا يقوم على التداخل بين العوامل الطبيعية والأسباب البشرية

وهنا تظهر القيمة الأهم في منهجه؛ إذ لم يكن يرى أن الكوارث الطبيعية وحدها كافية لتفسير حجم المأساة، وإنما كان يبحث عن طريقة إدارة السلطة والمجتمع للأزمة، وعن أثر الفساد وسوء التدبير والسياسات النقدية والاقتصادية في تضخيم آثارها

«إغاثة الأمة».. قراءة مبكرة لأسباب التضخم والأزمات

يكشف كتاب «إغاثة الأمة بكشف الغمة» عن عقلية اقتصادية لافتة لدى المقرئ

فقد ربط بين التضخم واختلال السياسات النقدية، ولاحظ أثر انتشار النقود النحاسية الرديئة في ارتفاع الأسعار وتدهور الأوضاع الاقتصادية□

كما ربط بين الأزمة الاقتصادية والفساد وسوء الإدارة، ورأى أن فساد مؤسسات الدولة يمكن أن يحول أزمة محدودة إلى كارثة واسعة□

وتحدث عن سوء تدبير المسؤولين، والرشوة، وتدهور الإدارة، والضرائب والمغارم، وتأثير ذلك على الفلاحين والإنتاج الزراعي□

وفي تحليله للأزمات، لم يكن المقريري يكتفي بوصف النتائج، بل كان يعود إلى جذورها، محاولاً الإجابة عن سؤال أساسي: كيف تتحول أزمة اقتصادية إلى أزمة اجتماعية وسياسية تهدد استقرار الدولة؟.

وكان يرى أن معرفة أسباب المحن تفتح الطريق أمام معالجتها، وأن الإدارة الرشيدة قادرة على تقليل آثار الأزمات حتى عندما يستحيل القضاء عليها بصورة كاملة□

الفساد وسوء الإدارة في مرآة المقريري

من أبرز القضايا التي توقف عندها المقريري ظاهرة الفساد الإداري والمالي□

فقد رأى أن وصول غير الأكفاء إلى المناصب عبر الرشوة يفتح الباب أمام سلسلة متتابعة من الاختلالات، لأن المسؤول الفاسد لا يعمل منفردًا، وإنما يتحول إلى مركز جذب لشبكة أخرى من الفاسدين□

ويربط المقريري بين هذا النمط من الإدارة وبين ارتفاع الأعباء على السكان، وتراجع الإنتاج الزراعي، وهروب الفلاحين من أراضيهم، وانخفاض موارد الدولة□

كما رصد أثر الظلم الواقع على الفلاحين، واعتبر أن الضغط المفرط على الريف يؤدي في النهاية إلى نتائج عكسية؛ فكلما ازدادت الجبايات والمظالم، تراجعت الزراعة، وانخفضت الغلال، وازداد الخلل الاقتصادي□

وهكذا قدم قراءة ترى أن استقرار الاقتصاد لا ينفصل عن عدالة الإدارة وكفاءة المؤسسات□

الإقطاع المملوكي وأزمة الريف

توقف المقريري أيضًا عند نظام الإقطاع المملوكي، الذي رأى أنه تحول بمرور الوقت إلى مصدر للظلم والفساد□

فقد أدى توسع نفوذ الأمراء وأصحاب الإقطاعات، وفق تحليله، إلى زيادة الأعباء المفروضة على الفلاحين، وارتفاع تكاليف الزراعة، وتراجع المساحات المزروعة□

كما تحدث عن أشكال من السخرة والضغط على الفلاحين، وربط بين تلك الممارسات وبين تدهور الإنتاج الزراعي□

ومن خلال هذه القراءة، لم يكن المقريري يؤرخ للنظام السياسي فقط، بل كان ينزل إلى مستوى المجتمع والاقتصاد، ويتابع أثر القرارات السياسية على حياة الناس اليومية□

القاهرة□□ مدينة يكتب تاريخها من الداخل

تحتل القاهرة مكانة استثنائية في تراث المقريري، فقد لم يكتف بتسجيل أسماء السلاطين والأمراء، وإنما ألّخ للشوارع والأحياء والمساجد والمدارس والأسواق والقصور والدور والمنشآت□

ومن هنا جاءت أهمية كتابه «المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار»، الذي أصبح واحدًا من أهم المصادر التي تحفظ صورة القاهرة التاريخية□

وقد وصف المقريري المدينة كما عاشها وكما عرف طبقاتها ومؤسساتها، وسجل التحولات التي أصابت عمرانها، وتغير أحوال سكانها، واندثار بعض معالمها وظهور معالم جديدة□

ولذلك لم يكن كتابه مجرد تاريخ سياسي للقاهرة، وإنما يمكن قراءته باعتباره سجلًا عمرانيًا واجتماعيًا واسعًا للمدينة□

«ولاء مصري».. حب الوطن مع نقد المواطن

من السمات اللافتة في شخصية المقريري أنه جمع بين الاعتزاز الشديد بمصر والنقد القاسي لبعض أحوال المصريين□

فقد كان شديد الاحتفاء بتاريخ مصر، لكنه لم يتردد في نقد ما رآه من مشكلات اجتماعية وسلوكية لدى سكانها□

وهذه الثنائية تظهر في عدد كبير من كتاباته؛ فهو يحب الوطن ويحتفي بتاريخه، لكنه لا يتردد في توجيه النقد إلى المواطن عندما يرى أن سلوكًا اجتماعيًا أو سياسيًا يساهم في تدهور أوضاع البلاد

ويمكن النظر إلى هذا الموقف باعتباره جزءًا من منهجه التاريخي؛ فالمؤرخ لديه ليس مطلوبًا منه أن يجامل مجتمعه، وإنما أن يرصد الظواهر كما يراها ويحاول تفسيرها

المقريري والفاطيون نسب عائلي مثير للجدل

من أكثر الجوانب إثارة في سيرة المقريري قضية ما نُسب إليه من انتساب إلى الفاطميين

فالمقريري نفسه لم يثبت في مؤلفاته المتداولة سلسلة نسبه إلى الفاطميين بصورة صريحة، وكان في الغالب يتوقف عند جده العاشر عبد الصمد بن تميم

لكن عددًا من المؤرخين نقلوا روايات تفيد بأن أسرته كانت تنتسب إلى تميم بن المعز لدين الله الفاطمي

في المقابل، ظهرت اعتراضات تاريخية على هذه الرواية، خصوصًا أن المقريري نفسه نقل في أحد كتبه أن تميم بن المعز لم يكن له عقب، وهذا خلق إشكالية تاريخية ظلت محل نقاش بين الباحثين والمؤرخين

كما ظهرت روايات أخرى تحاول تقديم سلسلة نسب مختلفة، إلا أن المادة التاريخية المتاحة لا تحسم المسألة بصورة قاطعة

لماذا اهتم المقريري بتاريخ الفاطميين؟

كان اهتمام المقريري بتاريخ الدولة الفاطمية واسعًا وغير مسبوق في عدد من جوانبه

فقد خصص لها مؤلفات وأبحاثًا موسعة، ووثق تاريخها السياسي والديني والاجتماعي، وأدخلها بصورة أكثر وضوحًا في السياق العام للتاريخ الإسلامي

ومن أبرز أعماله في هذا المجال كتاب «اتعاط الحنفاء بأخبار أئمة الخلفاء»، الذي قدم تاريخًا موسوعيًا للدولة الفاطمية

وقد رأى بعض المؤرخين أن انتماء المقريري المزعوم إلى الفاطميين كان وراء هذا الاهتمام الكبير، بينما رأى آخرون أن الرجل كان يكتب انطلاقًا من منهج تاريخي يريد توثيق الأحداث بصرف النظر عن الموقف المذهبي منها

وتبقى الحقيقة الأبرز أن أعمال المقريري أصبحت من أهم المصادر التي يعتمد عليها الباحثون في دراسة الدولة الفاطمية وتاريخ مصر في تلك المرحلة

المقريري موظفًا في الدولة المملوكية

لم يبدأ المقريري حياته عالمًا منعزلًا عن الإدارة، بل خاض تجربة العمل الرسمي في الدولة المملوكية

وتولى عددًا من المناصب المهمة، من بينها التوقيع السلطاني، والنيابة في الحكم، والحسبة، والخطابة، والإمامة، والإشراف على بعض المؤسسات والأوقاف، إلى جانب مشاركته في الحياة العلمية

وكانت هذه التجربة العملية ذات أثر بالغ في تكوينه؛ فقد أتاحت له الاحتكاك المباشر بمؤسسات الدولة، ومراقبة طريقة عملها، والتعرف على الإدارة والاقتصاد والأسواق والقضاء وأحوال الناس

ومن هنا يمكن فهم جانب كبير من دقة ملاحظاته حول الدولة والمجتمع

الحسبة تجربة ميدانية انعكست على كتاباته

تولى المقريري الحسبة في القاهرة والوجه البحري، وهو منصب كان يرتبط بتنظيم الأسواق ومراقبة المهن والتجارة وبعض جوانب الحياة العامة

وقد منحت هذه الوظيفة فرصة نادرة للاطلاع المباشر على تفاصيل الحياة الاقتصادية والاجتماعية

فالمحتسب كان قريبًا من التجار والحرفيين وأصحاب المهن والأسواق، وبالتالي كان قادرًا على ملاحظة حركة الأسعار، ومشكلات التعاملات، وأوضاع الناس اليومية

وقد انعكست هذه الخبرة في مؤلفات المقريري، خصوصًا تلك التي تناولت الأزمات الاقتصادية والغلاء والأسواق والنقد

من الوظيفة إلى العزلة والتفرغ للعلم

بعد سنوات طويلة من العمل الرسمي والعلمي، اتجه المقريري في أواخر حياته إلى الابتعاد عن الوظائف العامة، وتذكر المصادر أنه أمضى سنواته الأخيرة في منزله، ملازمًا للعبادة والخلوة والتأليف، ونادرًا ما كان يخرج إلا لضرورة

لكن الابتعاد عن الوظيفة لم يكن يعني توقف عطائه، بل على العكس، كانت هذه المرحلة من أكثر فترات إنتاجه العلمي كثافة وظل محافظًا على قدرته على متابعة الوقائع والتاريخ حتى وفاته

وتوفي المقريري في القاهرة يوم الخميس السادس عشر من رمضان سنة 845هـ/1442م، ودُفن في اليوم التالي بمقبرة الصوفية خارج باب النصر

موسوعي تجاوزت مؤلفاته مئات المجلدات

تصف المصادر حجم إنتاج المقريري بأنه تجاوز مئتي مجلدة كبيرة، وتنوعت موضوعاته بين التاريخ والتراجم والحديث والفقه والعمران والاقتصاد والأنساب والجغرافيا وتاريخ المدن والطوائف والمذاهب

وكان هذا التنوع نتيجة طبيعية لعدد شيوخه الكبير، إذ تذكر المصادر أن عدد شيوخه بلغ نحو ستمئة شيخ

وقد جعل هذا التنوع من المقريري شخصية موسوعية قادرة على الجمع بين أكثر من مجال معرفي في العمل الواحد

ولم يكن يتعامل مع المعرفة باعتبارها جزءًا منفصلة، بل كان يربط بين السياسة والاقتصاد والمجتمع والعمران والدين والتاريخ

أسلوب واضح ومنهج صارم

لم تكن قيمة المقريري في كثرة الكتب التي ألفها فقط، وإنما أيضًا في الطريقة التي كتب بها، فقد عُرف عنه الحرص على النقل، والاهتمام بالتوثيق، وجمع الروايات، والمقارنة بينها، وتحليل الوقائع

كما تميز أسلوبه بالسلاسة والوضوح، بعيدًا في كثير من الأحيان عن التعقيد اللفظي، وكان مستعدًا لمراجعة ما كتبه إذا ظهر له خطأ أو تصحيح، وهي سمة تعكس قدرًا من التواضع العلمي

وتشير شهادة تلميذه ابن تغري بردي إلى أن المقريري كان يعود أحيانًا إلى ما يقوله له طلابه من ملاحظات، ويغير بعض ما سبق أن أثبتته في مؤلفاته

التاريخ عند المقريري: علم للتشخيص والاستشراف

من أهم ما يميز مشروع المقريري أنه لم يكن يكتفي بالنظر إلى الماضي، بل كان يستخدمه لفهم المستقبل

فعندما تحدث عن الأزمات التي ضربت مصر في عصره، كان يبحث عن أسبابها ومساراتها، ثم يقارنها بأزمات سابقة، محاولًا اكتشاف القوانين التي تحكم تكرارها

وفي «إغاثة الأمة» تحديدًا، يتحول التاريخ إلى وسيلة لتحليل الأزمات وإدارتها، فالمجاعات والغلاء والأوبئة ليست أحداثًا منفصلة، وإنما حلقات في دورة يمكن فهمها من خلال دراسة الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية المحيطة بها

تشخيص مبكر لآليات انهيار الدول

كان المقريري يعيش مرحلة شعر فيها بأن الدولة المملوكية بدأت تفقد بعض عناصر قوتها، فرصد مظاهر الفقر، وارتفاع الأسعار، وخراب بعض المناطق، وتراجع الزراعة، والصراعات داخل السلطة، واختلال الإدارة

وكان يرى أن المدن لا تنهار فقط عندما تسقط جدرانها أو تدمر مبانيها، وإنما تبدأ في الانهيار عندما يضعف نظامها السياسي والاجتماعي والأخلاقي، وتختل مؤسساتها، ويتراجع العمران

وهنا يظهر أثر ابن خلدون بوضوح، خصوصًا في فكرة أن الدول تمر بأطوار، وأن الترف والفساد وسوء الإدارة يمكن أن تكون مقدمات للانهيار

تنبؤ بأفول القاهرة والدولة المملوكية

ذهب المقريري في بعض كتاباته إلى نقل توقعات تتعلق بمستقبل القاهرة، مستندًا إلى ما رآه من مظاهر الفقر والخراب وغلاء الأسعار وتراجع العمران

وكان يراقب ما يحدث في المدينة باعتباره علامات على مرحلة تاريخية آخذة في التغير

ورغم أن التوقعيات التي وردت في بعض هذه التوقعات لم تتحقق حرفيًا، فإن أهمية رؤيته تكمن في التشخيص العام للاتجاهات، وليس في دقة الموعد

وبعد نحو قرن من وفاة المقريري، سقطت دولة المماليك أمام العثمانيين، ودخل السلطان سليم الأول القاهرة عام 1517م، لتبدأ مرحلة تاريخية جديدة في مصر

المقريري والاقتصاد: أفكار تتجاوز عصرها

ربما يكون الجانب الاقتصادي من أكثر الجوانب التي تجعل تراث المقريري حاضرًا في الدراسات الحديثة، فقد تناول التضخم، والنقود، والغلاء، والفساد، والسياسات النقدية، والإنتاج الزراعي، والضرائب، وإدارة الأزمات

وكان يرى أن التضخم لا يمكن فهمه بمعزل عن السياسات التي تتخذها الدولة، خصوصًا عندما يحدث خلل في النظام النقدي أو تتراجع كفاءة الإدارة

كما ربط بين الفساد وارتفاع الأسعار، وبين تدهور الإنتاج الزراعي وزيادة الأعباء على الفلاحين

وهذه الرؤية جعلت بعض الباحثين الاقتصاديين في العصر الحديث يعودون إلى أفكاره ويبحثون مدى استمرار صلاحيتها في تفسير بعض الظواهر الاقتصادية

«إغاثة الأمة» من التاريخ إلى إدارة الأزمات

تكمن أهمية «إغاثة الأمة بكشف الغمة» في أنه لم يكن كتابًا لتسجيل الكارثة فقط، وإنما محاولة لتفسيرها وتقديم رؤية لكيفية التعامل معها

فالمقريري كان يريد أن يحرر المجتمع من الاعتقاد بأن المحنة حالة استثنائية لا يمكن فهمها، وأن يدفع القارئ إلى النظر في تجارب الأمم السابقة

ومن خلال استعراض موجات الغلاء والمجاعات والأوبئة، حاول أن يثبت أن الشدة والرخاء يتعاقبان، وأن المجتمعات يمكنها تقليل آثار الأزمات عندما تفهم أسبابها وتديرها بصورة صحيحة

ثلاثة أسباب رئيسية للأزمات

حدد المقريري مجموعة من الأسباب التي رأى أنها تقف خلف الأزمات الاقتصادية، وفي مقدمتها الفساد وسوء الإدارة

كما انتقد نظام الإقطاع وما ترتب عليه من ضغوط على الفلاحين، وتحدث عن أثر اختلال النظام النقدي وانتشار النقود النحاسية على قيمة العملة والأسعار

وكانت رؤيته تقوم على أن العامل البشري لا يمكن تجاهله عند تفسير الكوارث الاقتصادية والاجتماعية

فالجفاف أو الوباء قد يكونان عاملين طبيعيين، لكن طريقة تعامل السلطة معهما يمكن أن تحدد ما إذا كانت الأزمة ستظل محدودة أم تتحول إلى كارثة شاملة

المؤرخ الذي كتب عن الناس لا عن السلاطين فقط

من أهم ما يميز المقريري أنه لم يحصر التاريخ في قصور السلاطين ومجالس الأمراء، فقد كتب عن الأسواق والبيوت والأحياء والحرفيين والتجار والفلاحين، وعن الأقباط واليهود، وعن المدارس والمساجد والمؤسسات، وعن الطعام والأسعار والعملات

وهكذا أصبح المجتمع نفسه موضوعًا للتاريخ

وهو ما جعل كتبه مصادر لا غنى عنها للباحثين في مجالات متعددة، من التاريخ السياسي إلى الاقتصاد والاجتماع والعمران والجغرافيا ودراسة الأديان والطوائف

600 عام على الرحيل: وحضور لا ينتهي

بعد ستة قرون من وفاة المقريري، لم يتحول الرجل إلى مجرد اسم في كتب التراث، بل بقيت مؤلفاته مصدرًا مستمرًا للباحثين في تاريخ مصر والقاهرة والدولة الفاطمية والمملوكية

وتكمن قيمة مشروعه في أنه جمع بين تجربة العالم وتجربة الموظف وتجربة المؤرخ وتجربة المواطن الذي يرى وطنه يتغير أمام عينيه

لقد عرف مؤسسات الدولة من الداخل، وشاهد الأسواق والمجتمع من قرب، وعاش الأزمات الاقتصادية والسياسية، ثم جلس إلى كتبه ليعيد قراءة كل ذلك بعين المؤرخ

ولهذا فإن المقريري لم يترك لنا فقط أخبارًا عن مصر القديمة، وإنما ترك طريقة في التفكير

طريقة تنظر إلى الأزمة من جذورها، وإلى الاقتصاد باعتباره جزءًا من السياسة، وإلى العمران بوصفه انعكاسًا لحالة الدولة، وإلى التاريخ باعتباره أداة لفهم الحاضر واستشراف المستقبل

المقريري: مشروع علمي يتجاوز حدود الزمن

ربما تكون أهم رسالة في استحضار المقريري بعد 600 عام من وفاته هي أن المؤرخ الحقيقي لا يكتفي بحفظ ما حدث، وإنما يسأل: لماذا حدث؟ وكيف حدث؟ وما الذي يمكن أن نتعلمه منه؟.

وهذه الأسئلة هي التي جعلت أعمال المقريري تتجاوز عصرها

فحين تحدث عن الفساد، لم يكن يسجل واقعة عابرة، وإنما كان يبحث في أثر فساد الإدارة على الاقتصاد والمجتمع

وحين كتب عن التضخم، لم يكتف بأرقام الأسعار، وإنما حاول تحديد أسبابها

وحين رصد خراب القاهرة، لم ينظر إلى المباني وحدها، بل بحث في العلاقة بين العمران والسياسة والاقتصاد

وحين سجل المجاعات والأوبئة، لم يترك المجتمع أسير فكرة القدر، وإنما بحث عن مسؤولية البشر في إدارة الكارثة والتخفيف من آثارها

وهكذا بقي المقريري، بعد ستة قرون من رحيله، شاهدًا على عصره ومحلًا له في الوقت نفسه؛ مؤرّدًا لمصر، ومؤرّدًا للناس، ومراقبًا لتحولات الدولة والاقتصاد والعمران

وبينما تتغير المدن والأنظمة والأدوات، يبقى السؤال الذي طرحه المقريري صالغًا لكل زمن: ما الأسباب التي تقود المجتمعات إلى الرخاء، وما العوامل التي تدفعها نحو الغلاء والخراب والأفول؟.

ومن هنا تأتي أهمية استعادة تراثه اليوم؛ ليس باعتباره ماضيًا مغلقًا، وإنما باعتباره تجربة معرفية يمكن أن تساعد على قراءة الحاضر بعين أكثر عمقًا، وفهم كيف تتشكل الأزمات، وكيف تبدأ الدول في التراجع، وكيف يمكن للمجتمعات أن تتعلم من تاريخها قبل أن تعيد إنتاج أزماتها